الشباب والإسلام السياسي في سوريا

حسام جزماتي

حقبة التأسيس

لا أحد يَعْرف مَن الذي أَطْلَقَ اسمَ «الأحداث» على الصِّدام العنفي المسلّح الذي وقع بين المعارضة الإسلامية والسلطة السورية في أواخر سبعينات القرن الماضي وأوائل ثمانيناته. غير أنّ هذا التعبير الشعبي غيرَ الدالّ على مضمون محدَّد لا يكتسب محتواه التجهيلي في ذهن أحدٍ من السوريين قَدْرَ ما يكتسبه في أذهان شبابهم، الذين وُلِدوا قبيلَ هذه «الأحداث» أو أثناءها.

فالحقّ أنّ هذه الحقبة، التي أَسّستْ فعليّاً لعلاقة المجتمع السوري بحركات الإسلام السياسي، حقبةٌ مجهولةٌ بشكل شبهِ تامٍّ بالنسبة إلى أولئك الشباب: فهم لم يشهدوها، ولم يقرأوا أو يسمعوا عنها معلومات واضحةً او وافيةً، وإنْ كانت آثارُها عليهم بيّنةً بحكم تشكُّل معارفهم ووعيهم في الفضاء السياسي والأمني والثقافي الذي نَتَجَ عنها.

كانت المعارضة الإسلامية قد رَكّزتْ على دور الشباب في «إقامة حُكْم الله على الأرض،» لأنّ «العصبة المؤمنة التي تركّزتْ في دار الأرقم، وعلى يديْها تحقَّقَ نصرُ الإسلام، كانوا شبابًا،» بحسب كتابٍ دعائيٍّ موجّهٍ إلى الشباب كَتَبَه أحدُ المشايخ الجهاديين للإخوان، وطُبع طبعاتٍ عديدةً منذ أواسط السبعينات.[١] ودعا المؤلِّفُ الشبابَ بحماس إلى العمل من أجل إقامة الحكم الإسلامي: «شيِّدوا بسواعدكم الفتيّة صَرْحَ الإسلام العتيد. أعيدوا بعزائمكم المتينة مجدَ الجدود العريض. ضعوا نصبَ أعينكم إحدى الحُسْنَيَيْن: إمّا نصرًا لتعيشوا أعزّاء، وإمّا قتلاً لتموتوا شهداء.»[٢]

وفعلاً كانت معظمُ كوادر وقيادات «الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين» من الشبّان الجامعيين. وكذلك كانت كوادرُ التنظيم العامّ (الإخوان المسلمون) التي شاركتْ، دون إذن القيادة أولَ الأمر، في التحركات الميدانية. ولمّا لم يكن منحُ هؤلاء الشباب «النصرَ» احتمالاً واردًا لدى السلطات السورية، فقد مَنَحَتْهم «الشهادةَ» كلّما تسنّى لها ذلك! وانهارت المعارضةُ الإسلاميةُ إثر القضاء على العصيان في مدينة حماة في شباط ١٩٨٢. وإضافةً إلى مَنْ قُتِل، دخلَ آلافٌ من أعضاء الإخوان المسلمين السجونَ.

وإذا كان معارضون من مختلف التيارات السياسية المنظَّمة وَجَدوا طريقَهم إلى السجن وقتَها، فإنّ التعاملَ الثأري وسياسةَ الاستئصال كانا من نصيب الإسلاميين وحدهم. لقد ظلوا لسنوات طوال مقطوعي الصلة بالعالم الخارجي، وفي ظروف من القهر الجسدي والنفسي أَخَذَتْ أخبارُها تتسرّب لتعطي مفعولَها التأديبيَّ الذي عمَّ سوريا الثمانينات ـ ومازال تأثيرُه قائمًا حتى اليوم.

أما الناس، وقد ارتدُّوا خائبين من مغامرتهم الإخوانية، بشعور مَنْ تورَّطَ في حماسٍ مُبالَغٍ فيه، فقد استعادوا «الحقائقَ» التي غَفلوا عنها زمنًا: مِنْ لاجدوى مقاومة السلطة، وضعفِ المعارضة، وسعيِها المفترض إلى الاستيلاء على السلطة لغايات شخصية. وأمام دائرة الاشتباه، لم يَجِدِ السوريون مَنْ يحمّلونهم المسؤوليةَ سوى الإخوانِ أنفسِهم الذي قادوهم إلى مغامرةٍ خرقاء. وبالتوازي مع الدعاية الرسمية الكثيفة وَصَلَتْ شعبيةُ الإخوان إلى الحضيض.[٣]

تشكّلتْ شخصيةُ سوريِّ الثمانينات ـ وأعني أبا الشابّ السوري اليومَ ـ من الحرص البدائي على المصلحة الشخصية، والخصاءِ أمام الأجهزة الأمنية ونظائرها، والنظرِ إلى السلطة القائمة كمسلَّمَةٍ أبدية، وتجنُّبِ العمل السياسي الداخلي ـ وهو تجنُّبٌ يرقى إلى مرتبةِ «فوبيا» راضّةٍ في حالة الإسلام السياسي، أو كُلِّ ما يُمْكن أن يكون طريقًا إليه، مثل: حضور الدروس الدينية، أو التردُّدِ إلى المساجد، وإظهارِ أمارات الالتزام السلوكي بالإسلام.

---

١ ـ ٢ ـ عبد الله ناصح علوان، **حتى يَعْلم الشباب** (القاهرة، بيروت، حلب: دار السلام، ط ٧، ١٩٩٠)، ص ٨، ١٥٣.

٣ ـ الكتاب الجامع لهذه الدعاية الرسمية هو: **الإخوان المسلمون: نشأةٌ مشبوهةٌ وتاريخٌ أسود** (دمشق: مكتب الإعداد في حزب البعث العربي الاشتراكي، ٤ أجزاء، ١٩٨٤ـ ١٩٨٥).

الشباب والإسلام السياسي في سوريا

لكنّ طيفًا واسعًا من المجتمع السوري محافظٌ، يلوّن التديُّنُ الإسلاميُّ عددًا كبيرًا من سلوكاته الشخصية والاجتماعية. أمّا وقد أُلجئَ الآن إلى التقلّص في حدوده الدنيا، خوفًا من الاستباقية الأمنية، فقد بدأ عددٌ من شيوخه ورموزه المستقلّين بالبحث عن حلّ. ولم يكن الحلّ سوى تطمين الأجهزة الأمنية والسياسية إلى تباينهم المنهجي والسلوكي مع الإخوان. ولم يكونوا في هذا مُدّعين أو مناورين: فمعظمُهم خصومٌ أصيلون للنهج الإخواني ولمختلف تيارات الإسلام السياسي، ومعظمُهم «مشايخُ» تقليديون يُعْنون بتدريس العلوم الشرعية للعامة أو ببثّ روح التصوف والأخلاق الإسلامية. وبالتوازي مع تخفيف القبضة الأمنية عنهم، حَرِصَ هؤلاء المشايخُ على «تعقيم» الجوِّ المحيط بهم من كلِّ ما يمكن أن يثير «فتنةً» تعيد البلدَ إلى ما عاناه من «بلاء.» وألحّوا على تلاميذهم ومريديهم المتكاثرين بأن ينشغلوا بـ «طلب العلم» و«تهذيب النفس.» وتجنّبوا الإشارةَ إلى أيّ عمل عامّ سوى العمل الخيري. وكلما لزم الأمرُ، كانت مواقفُهم، ومواقفُ مريديهم، «غيرَ إخوانية» بل و«ضدَّ إخوانية» كذلك.(١)

وآتت هذه السياسةُ أُكُلَها. فمنذ التسعينات أخذت الروحُ تعود إلى هذا الجسد الكبير المؤلَّف من عشرات الألوف من المتديِّنين المُلْتحين والمتديِّنات المحجَّبات، الأمرُ الذي عنى لكثيرٍ من المراقبين العلمانيين في سوريا عودةً إلى الإسلام السياسي، بينما كانت الأمورُ تمشي في اتجاه آخر.

نتيجةً لكلِّ ما سبق، تتكوَّن نظرةُ الشباب اليوم إلى الإسلام السياسي. وهي نظرةٌ لا تَحْمل أيَّ مضمون، بسبب التجهيل وعدم الاحتكاك. وهو أيضًا الجيلُ السوريُّ الوحيد الذي رَبَّتْه إداراتُ المدارس على التكرار كلَّ صباح ـ بعد ترديده شعارَ حزب البعث والولاءِ للقيادة ـ على أن يعاهِدَ على «التصدّي للإمبريالية والصهيونية والرجعية،» وعلى «سَحْق أداتهم المجرمة، عصابةِ الإخوانِ المسلمين العميلة» دون أن يَعْرف عنها شيئًا!

مواقف الشباب السوري من الإسلام السياسي

إذا أردنا أن نَرْصد شرائحَ الشباب السوري اليوم، ومواقفَهم المحتملةَ من تيارات الإسلام السياسي، فإنّنا يُمْكن أن نُجْمِلَها في الآتي:

١ ـ الجسم العامّ: وهو الذي يضمّ، حسبَ تقسيمنا، العددَ الأكبرَ من طلاّب الجامعات والمعاهد السورية ومتخرِّجيها الجدد. وهؤلاء هم أحدُ إفرازات الحداثة، بصيغتها السورية. فهم حريصون على إتقانِ اللغات الأجنبية، ولاسيّما الإنكليزية، وإتقانِ استخدام الكمبيوتر، بحثًا عن فرص عمل متميزة داخل البلد أو خارجه؛ وهم ضعيفو الاهتمام السياسي والثقافي؛ معنيّون بالوصول إلى أقصى حدّ من التغرّب في السلوكات اليومية، وصولاً إلى العلاقات الجسدية. وهم في الوقت نفسه مؤمنون بالإسلام، يدافعون عنه بحرارةٍ وقلةِ خِبرةٍ أمام ملحدٍ مصابِف. وكثير منهم يحافظ على الشعائر الإسلامية؛ فمعظمُهم يصوم رمضانَ، وقسمٌ كبيرٌ منهم يصلّي، وإنْ دون مواظبة. وهم يعيشون التناقضَ بين سلوكاتهم بأقلِّ حدٍّ من الارتباك، وفي صدرِ كلٍّ منهم يتعايش قلبان: الحداثةُ والدين.

أما موقفهم حيال الإسلام السياسي فهم يؤيِّدون ـ بتأثيرِ الإعلام السوري والعربي ـ حركاتِ المقاومة الإسلامية خارج سوريا كحزب الله وحماس، وصولاً إلى بن لادن في كثير من الأحيان. أما عن الإسلام السياسي **داخل** سوريا، فهم لا يَمْلكون عنه أدنى فكرة، ولا ينشغلون بالبحث عنه. وهم «ديموقراطيون» محايدون، لا يمانع القسمُ الأكبرُ منهم في قيام حزب إسلامي سياسي في سوريا. غير أنّ أحدًا منهم لا يفكّر في إقامة «الدولة الإسلامية،» ولم يسمعْ بأسماء مثل مصطفى السباعي أو مروان حديد.

ومن الشريحة الأكثر تديُّنًا في أوساط هؤلاء، تكوَّنتْ مجموعاتٌ صغيرةٌ وقليلةٌ اعتنتْ بالترويج لفكر الداعية المصري الشبابيّ

١ ـ إضافةً إلى الشيخ كفتارو والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، اللذيْن يُذْكران كثيرًا في هذا السياق، هناك عشراتُ المشايخ الصوفيين والمدرِّسين الفقهيين ذوي الثقل الشعبي، ممن ينطبق عليهم هذا التوصيفُ. وربما كان كلُّ شيخ أو مدرِّس ديني في أيٍّ من مساجد سوريا مضطرّاً إلى سلوك هذا السبيل طوال الثمانينات والتسعينات.

بسبب السياسة الرسمية، لا وجود فعلياً للإسلام السياسي لا في واقع الشباب السوريين ولا في مشاريعهم

عمرو خالد، والمشاركةِ في تنفيذِ فكرةِ «صناعة الحياة» التي دعا إليها. لكنّ نشاطاتهم اقتصرتْ على توزيع ملصقات لمكافحة التدخين، وجمعِ تبرُّعاتٍ عينيّةٍ بسيطةٍ لأعمال خَيرية.

ويعبِّر كثيرٌ من هؤلاء الشباب عن ذواتهم واهتماماتهم في المنتديات الشبابية على شبكة الانترنت،[١] وفي غُرَفِ «الشّات» السورية والعربية.[٢] وتقتصر هذه الاهتماماتُ على رومانسية بسيطة غير مَعيشة، والاستماع إلى الأغاني، وطرح بعض الموضوعات ومناقشتها من دون عمقٍ في غالب الأحيان.

٢ ـ المتديِّنون: وهم، في تقسيمنا، الشبابُ الذي يَعْتبرون الدينَ المكوِّنَ الأساسيَّ في حياتهم. وغالبيتُهم في سوريا من المنتظمين في سِلْكِ التلمذة على شيخٍ محدَّد، مدرِّسًا شرعيّاً كان أو موجِّهًا روحيّاً «صوفيّاً.» ويُعنَى هؤلاء بإبراز هويتهم الدينية في كثير من الأحيان، ويَدْعون الناسَ إلى الالتزام بما هم عليه. وهم محافظون على الشعائر الإسلامية، مبتعدون قدرَ الإمكان عن المعطيات السلوكية الوافدة عبر الفضائيات الفنية والترفيهية. لكنّهم غير منشغلين بإقامة «الدولة الإسلامية.» ويقتصر «أمرُهم بالمعروف» و«نهيُهم عن المنكر» على الدوائر القريبة، من عائلية وسواها. ثم إنّهم قد وَرِثوا من أشياخهم نفورًا أصيلاً من حركات الإسلام السياسي، وهم ـ وإن اشتركوا معها في كثير من الجزئيات ـ غيرُ مؤهَّلين للانضمام إليها. وسواء أقام حزبٌ إسلامي أمْ لا، فإنّ مرجعيتَهم الأولى والأساسية هي شيوخهم المباشرون، أو نوابّهم المحليون إنْ كان جسدُ الجماعة كبيرًا ـ كما هو حالُ كثيرٍ من مشيخات الطرق الصوفية.

٣ ـ طلاّب الكليّات والمعاهد الشرعية: في سوريا كليّةٌ رسميةٌ وحيدة لتدريس الشريعة الإسلامية، في جامعة دمشق. غير أنّ فيها فروعًا تدريسيةً لجامعات شرعية **غير** سورية، كجامعة الأزهر المصرية، وكليّة الدعوة الليبية، وجامعة أمّ درمان السودانية. كما أنّ فيها عددًا من المعاهد الشرعية (الثانوية) العامة والخاصة التي تتوزّع في كلّ المدن وتُعنى بتخريج الخطباء والأئمّة والمدرّسين الدينيين. ويبلغ عددُ المنتظمين في مجمل هذه المؤسسات التعليمية عدةَ آلاف. ورغم أنّ المهمة المعلنة لهؤلاء هي إشاعةُ الروح الإسلامية في المجتمع، إلاّ أنّ المهمة تَقْتصر عمليّاً لدى الكثيرين منهم على الانضمام إلى سِلْكِ رجال الدين، بما يعنيه ذلك من القيام على أمر الشعائر الدينية في المساجد، و«الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر» في حدودٍ لا تتوسّع لتَطْلُبَ أسلمةَ الدولة والمجتمع. وربّما اطّلع بعضُ هؤلاء على جزء من أدبيات الإسلام السياسي المنوَّعة في سوريا، إمّا بحكم التوسع في القراءة خارج المدرسة أو بحكم الاحتكاك بالطلبة الوافدين من البلاد العربية والإسلامية. إلاّ أنّ هذا الاطّلاع لم يَقُدْ أحدًا منهم إلى تبنِّي تلك الأفكار، بل كانت في كثير من الأحيان موضوعًا للردّ والنقض، كما جرى في عدة أطروحات جامعيةٌ قُدِّمتْ في كلية الشريعة في جامعة دمشق.

وإضافةً إلى هذه البنية التقليدية، هناك عددٌ قليلٌ من هؤلاء الطلبة ممن تأثّر بأطروحات التجديد الإسلامي المعاصرة ـ وهي بمجملها أطروحاتٌ مناهضةٌ للإسلام السياسي، ومنشغلةٌ بإعادة بناء «العقل الإسلامي» على أسس حديثة.

٤ ـ العلمانيون: وهم الذين يَمْلكون موقفًا واضحًا ومعلنًا من رفض الإسلام السياسي، والوقوفِ في وجه مشروع إقامة «دولة إسلامية» في سوريا. وينقسمون إلى قسمين. أما القسم الأول فمثقفون مسيَّسون في أحد الأحزاب السورية القائمة، وعددُهم قليلٌ نظرًا إلى ضعف الأحزاب السورية واكتهالها. وهؤلاء هم الأكثرُ معرفةً بطروحات الإسلام السياسي ورموزه، عبر المراجع المضادَّةِ له من كتابات المصريين وسواهم من الكتاب العلمانيين، أو مِنْ كِتاب **الإخوان المسلمون : نشأةً مشبوهةً وتاريخٌ أسود** الذي نشرتْه السلطةُ السوريةُ في سياق رَفْدِ حربها المسلّحة ضدّ الإسلاميين بنضال إيديولوجي. ورغم معارضة هؤلاء الشباب غالبًا للسلطة السورية، فإنّهم يتّفقون

١ ـ مثل منتدى شبابلك، ومنتدى شباب سوريا، وموقع مزاجيّات، ونوادي الحوار السورية.

٢ ـ www@syriaroom.net

الشباب والإسلام السياسي في سوريا

معها في الموقف من «الإخوان المسلمين،» وإنْ دان بعضُهم العنفَ الزائدَ الذي وُجِهَتْ به هذه الحركةُ.

أما العدد الأكبر من الشبّان العلمانيين السوريين فقد أخذ موقفَه هذا نتيجةَ تَحَدُّره من إحدى الطوائف الإسلامية غير السُنّية، التي وَرِثتْ توجُّسًا تقليديّاً من سيطرة المسلمين السُنّة على الحياة السورية العامة. وبالرغم من معارضة بعض هؤلاء الشباب للسلطة، فإنّ خيار إقامة دولة إسلامية يبدو لهم أسوأ بما لا يقاس من النظام القائم الآن. وفي أحيان كثيرة لا يفرِّق هؤلاء بين الإسلام السياسي ومَظاهرِ التديُّن العادي والمشايخ التقليديين أو الجدد.

ويَنْدر الشبابُ الذي يَحْملون موقفًا علمانيّاً مستقلاً، غيرَ نابعٍ من معطيات التحدّر الأوسع (الطائفة) أو الأضيق (العائلة)، التي كثيرًا ما تكون منشبكةً بالحزب السياسي أو التيار الذي ينتمي إليه الشابُّ.

٥ ـ المهنيّون: هم الشبّان الذين تعثَّرَ طريقُهم الدراسي فاتّجهوا إلى الاشتغال المبكّر في المِهن والحِرَف المختلفة. هذه الشريحة هي الأقلُّ عنايةً بالشأن العامّ عادةً، إذْ يَشْغلُها عنه البحثُ عن إتقان العمل وكسب العيش. وهي شريحةٌ محافظةٌ ذهنيّاً واجتماعيّاً، وإنْ كان كثيرٌ من أفرادها غيرَ ملتزمين بالأوامر والنواهي الإسلامية. وتبدو الشريحةُ هذه غيرَ معنيّةٍ بالإسلام السياسي من قريب أو بعيد، رغم أنّها قد تُقدِّم له بعضَ وقوده في حالات الحماس العامة، كما جرى عند غزو الأميركيين للعراق قبل سنوات قليلة. فَتَحْتَ تأثيرِ المزج بين شعارات إسلامية حماسية، و«النخوةِ» لمساندة الإخوة في العروبة والإسلام، والإعجابِ الجزئيّ أو المكتمل بشخصية صدّام حسين، وَجَدَ البعضُ ـ ولاسيَّما من التجمعات الإسلامية الأكثر ريفيةً أو بداوةً ـ طريقَه إلى العراق، وسط تأييد الأصحاب والمجايلين وإعجابهم.

٦ ـ الإسلاميون: وهم الذين يؤيِّدون قيام دولة «إسلامية» في سوريا، ويؤيِّدون «الإخوانَ المسلمين» أو «حزبَ التحرير الإسلامي» أو تيّاراتِ السلفية الجهادية الإسلامية الراهنة. وهم أفراد قليلون، بعضُهم أبناءٌ لأعضاء في «الإخوان المسلمين» نجحوا في الفرار أيام الثمانينات، وأقاموا في إحدى دول الخليج؛ وبعضُهم من بقايا «حزب التحرير» الذي قَصَمَت اعتقالاتُ عامِ ٢٠٠٠ ظَهْرَ بنيته التنظيمية السورية؛ وبعضُهم الثالث أفرادٌ معزولون وَجَدوا طريقًا إلى أدبيات السلفية الجهادية، وقد يجمع بعضُ هؤلاء أنفسَهم في «جماعة» معزولة تتألف من بضعة أشخاص يتبادلون الأقراصَ الليزريةَ الحاوية على دروس أو خطبٍ أو بياناتِ بعض رموز السلفية الجهادية، غير أنّ «الجماعة» هذه سرعان ما تتبعثر دون أن تؤدِّي دورًا يُذْكر.

الإسلام السياسي وآفاق المستقبل

وفي الختام، لا يبدو التباهي الرسميُّ السوريُّ بالقضاء على «الإرهاب» منذ الثمانينات تباهيًا مجانيّاً. فقد أفلحتْ سياسةُ التعقيم وتوسيع دائرة الاشتباه في الوصول إلى النتائج التي سَبَقَ وصفُها، والتي يمكن تلخيصُها بأنّه لا وجود فعليّاً للإسلام السياسي لا في واقع ولا في مشاريع الشباب السوريين. لكنّ هذا يبقى محدودًا بحدود الحاضر، أمّا في المستقبل فربما استطاعت حركةٌ إسلاميةٌ معتدلة وذاتُ ميول ليبرالية استقطابَ عددٍ من الشبّان من مختلف الشرائح التي سَبَقَ تمييزُها، ولاسيما الشريحة الأولى التي لم تبلورْ موقفَها من أيّ شيء بعد. وربما استطاع ذلك «الإخوانُ المسلمون» أنفسُهم. لكنّ ذلك لن يتجاوز تشكيلَ كتلةٍ ذاتِ وزن متوسط في شارع سوريّ مقبل، ومن غير المرجَّح أن يصل إلى حدود اكتساح «الشارع» كما يتوهّم علمانيون سوريون متشددون.

وربما استطاع سلفيون جهاديون، في ظروف خلخلة أمنية وسياسية واجتماعية، القيامَ ببعض الأعمال الميدانية التي تقتطعُ لنفسها نصيبًا بارزًا في وسائل الإعلام العربية. غير أنّ المجتمع السوري والإسلام السوري ليسا تربةً خصبةً للسلفية الجهادية المنظمة.

حسام جزماتي
كاتب سوري.